(لتشعر بطمأنينة سيكولوجية)، تظل، على المدى البعيد، محافظة على النزاع العربي ـ اليهودي في حالة كمون يمكن ان تصير عامل استقطاب، وهدفاً مفضلاً للمجموعة الخاضعة. ويقدم جملة افتراضات تبرهن على ذلك، وتتمثل في التوسع السكاني لصالح العرب، والنضج السياسي في الضفة الغربية وغزة، فضلاً عن ظهور وحدة الهوية والانتماء حتى لدى عرب ١٩٤٨: اذ انهم يحتفلون بيوم الارض! ولاح هذا التضامن، أيضاً، في اثناء حصار المخيمات في بيروت سنة ١٩٨٦، وكذلك خلال دفن ظافر المصري وأنور نسيبة. وتلعب الاتصالات العديدة بين فلسطينيي الاراضي المحتلة والجليل والنقب والاردن والشتات، دوراً كبيراً في بلورة الشعور بالهوية الوطنية. ويسعى الفلسطينيون الى تحقيقها عبر التخلص من الهيمنة الاجنبية، سواء أاسرائيلية كانت أم عربية.

ملاحظات لا بد منها

ينطلق ديكوف من نظرة غربية محتضنة لأسرائيل ويعزّ عليه تشويهها. واذ يعمد الى تقويم الاستراتيجيات الاسرائيلية، فانه يتهرب من استنتاج ما يسيء الى اسرائيل، حتى وان استنتج «بعض» ممانعة الفلسطينيين المهددة. انه يمعن في التبرير ويدعي بالموضوعية (الذاتية) حتى لدى تناول عمليات اسرائيل العدوانية والتي تغدو ارهاباً، لا مقاومة، عندما يمارسها الطرف الآخر. لذلك، لا يستخدم المصطلح الفلسطيني، الا اذا وجد له مسوغاً غربياً؛ ثم ينساه، مفضلاً «يهودا والسامرة»، «توحيد القدس»، الخ.

ويبدو منهجه قريباً من المذهب الهيغلي، وهو يتبنى فكرة يهودية، ذات مصدر ديني، تتحقق عبر التاريخ، محدثة أمراً واقعاً، لا يبالي بضحاياه. هكذا يبدو الفلسطيني ـ بل «العربي»، لأن الهوية الفلسطينية لم تتبلور بعد ! ـ في مرآة الاستراتيجية الاسرائيلية، وفي منهج المؤلف، «عنصراً أهلياً»، ضعيف الصلة بشتاته، ذلك ان المؤلف لا يهدي كتابه «الى تسوفيا وانزو، طفلين من القدس» فحسب، بل يصدّر فصوله، غالباً، بمقتطفات من التوراة، تبدى تفهماً لـ «العمق التاريخي» الذي انطلقت منه ـ اليه دولة اسرائيل، على حساب عمق آخر مفقود ـ في الكتاب ـ وينسى على خطى الاستراتيجية الاسرائيلية ـ السكان الاصليين قديماً، وهم اليبوسيون والكنعانيون، وحديثاً الفلسطينيون، فلا يظهر تاريخهم الا ابتداء من الانتداب البريطاني. ذلك ان «العنصر الاهلي» يعرقل بوجوده ممارسة اليهود «حق العودة»؛ كما انه يغيب، ما عدا في الاستنتاجات النهائية ـ باعتباره من المخاطر المحدقة بالاستراتيجيات الاسرائيلية ـ عن المنهج الذي يتوخّاه ديكوف، ما دام يتعامل مع أمر واقع اسرائيلي، لا يخفّف من غلوائه، لدى المؤلف، سوى احتمائه بأقل مما تعترف به بعض المجتمعات الدولية، حتى في مجال التسميات.

ويربط الكاتب بين اسرائيل وتاريخ الشعب اليهودي، كما يربطها بالوكالة اليهودية في الماضي القريب، وبالمؤسسات الصهيونية العالمية، و«بجالياتها» في العالم حالياً؛ بينما يبدو وكأنه يضع حدوداً بين م.ت.ف. وفلسطينيي الاراضي المحتلة، وكذلك بينهم وبين الشتات الفلسطيني، فتغدو الضفة الغربية أرضاً ضائعة بين انتماءات اقليمية متعددة. كذلك يبدو ما يحققه الفلسطينيون وكأنه متأت من مصدرين: الاستفادة من اسرائيل، ومن تناقضات استراتيجياتها التي تزوّد «المجموعة الخاضعة» بممانعة متزايدة وفاعلة في بلورة الهوية الوطنية، وفق ما تسمح به الديمقراطية الاسرائيلية، بعيداً من الدور الحاسم الذي تلعبه قضية مثارة عالمياً، بحروبها ومجازرها ولحظات تألقها وانتكاساتها.

لكن كتاب ديكوف يبدو وكأنه ينتهي من حيث بدأت الانتفاضة الاخيرة في الاراضي المحتلة؛ وذلك لتوفر بعض الشروط التي ذكرها، والتي تشكل بعض تناقضات الاستراتيجيات الاسرائيلية، وبخاصة عدم وجود تفاعل (كما في المجال الاقتصادي) بل قطيعة بين قوميتين، الى جانب اشارته الى كون التبعية لا تنتهي الا عبر التمرد والمجابهة، وذلك على الرغم من مبالغته في تقدير فعالية الامن الاسرائيلي الذي حال دون عصيان مستمر أو انتفاضة، وفي ادعاء الطمأنينة السيكولوجية التي وفّرتها الاستراتيجية الاسرائيلية لـ «الاقليات» الاخرى.

ومع ذلك، فقد حدس بما بدأ يحدث، انطلاقاً من رؤيته لكون الاستراتيجية الاقليمية حافظت على